لله من جلساء لا تجالسهم ... ولا تشيرهمو للسوء مرتقب
لا بادرات الاذى يخشى رفيقهم ... ولا يلاقيه منهم منطق ذرب
ابقوا لنا حكماً تبقى منافعها ... أخرى الليالي على الايام والكتب
فايما أدب منهم مددت يدي ... اليه فهو قريب من يدي كثب
ان شئت من محكم الآثار يرفعها ... الى النبي ثقات خيرة نجب
او شئت من عرب علماً باولهم ... في الجاهلية انبتني بها العرب
او شئت من سير الاملاك من عجم ... تنبي وتخبر كيف الرأي والادب
حتى كأني قد شاهدت عصرهمو ... وقد مضت دونهم من عمرهم حقب
يا قائلاً قصرت في العلم نهيته ... امسى الى الجهل فيما قال ينتسب
ان الاوائل قد بانوا بعلمهم ... خلاف قولك ما بانوا ولا ذهبوا
ما مات مثل امرئ ابقى لنا ادباً ... نكون منه اذا ما مات نكتسب

قال الجاحظ : ومما يدل على نفع الكتاب انه لولا الكتاب لم يجز ان يعلم اهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وما يحدث بالكوفة في بياض يوم حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فتعلم بها اهل البصرة قبل المساء اه

غدرة الكتب

لله اخوان افادوا مفخراً ... فبوصلهم ووفائهم اتكثر
هم ناطقون بغير السنة ترى ... هم فاحصون عن السرائر تضمر
ان ابغ من عرب ومن عجم معاً ... علماً مضى فبه الدفاتر تخبر
حتى كأني شاهد لزمانها ... ولقد مضت من دون ذلك اعصر
خطباء ان ابغ الخطابة يرتقوا ... كفي وكفي للدفاتر منبر
كم قد بلوت بها الرجال وانما ... عقل الفتى بكتاب علم يسبر
كم قد هزمت به جليساً مبرماً ... لا يستطيع له الهزيمة عسكر

ليس في الدنيا منظر تنصرف اليه الوجوه ولا صورة تحدق فيها العيون ولا نفحة ترتاح اليها الارواح وتخاطبها القلوب ولا صديق اخلص من ذاك الكتاب تودعه سرك فلا يخونك وتبوح اليه بذات نفسك فيحفظ غيبتك و يطرب حضرتك . ليس في صفة البشر مثل هذه

الاوراق الثمينة التي قد يجهد كاتبها في تسويدها نفسه و يصرف عليها ايامه واعوامه رجاء نفع يُرتجى وعقل يرتئي وجهالة تضمحل وذكر يخلد ومحمدة تردد . نعم ليس افعل في القلوب من الكتاب يعيد مظلمها مستنيرًا وميتها حيًا ويجعل بعد عسر يسرًا . فبالكتب تحيا الامم وترتفع الى ذرى المجد والسؤدد و بالصحف تأنس النفوس المستوحشة وتنبسط الصدور المنقبضة .

وماذا عسانا نقول فى وصف الكتاب بعد ان قرأ القارىء ما قرأ في صدر هذا الجزء من قول الجاحظ سيد العلماء ورأس الحكماء وانما نقول هنا على الجملة ان قد كثر المولعون في جمع الكتب قديمًا بكثرة اسباب الحضارة بحيث لو اراد المرء احصاء من ولعوا بذلك من العرب و وصف شيء من حالتهم لاقتضى ذلك كتابًا برأسه . فبلغ من عناية الملوك بالكتب وجمعها ان حمل المأمون الى بغداد من الكتب المخطوطة ما يثقل مائة بعير وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث ان يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة . قيل ان عدد مجلدات خزانة المأمون كان ستمائة الف وان فهرستها دخلت في اربعة واربعين مجلدًا وقيل ذلك في مكتبة الخلفاء بالاندلس . وأنشيء بيت الحكمة في بغداد على عهد الرشيد في غالب الاقوال وكان يجتمع فيه النساخ والمؤلفون والمترجمون والمطالعون . اما دار الحكمة او دار العلم في القاهرة فكانت فيها خزانة انشأها الحاكم بامر الله وحمل اليها الكتب من خزائن القصور . وكان في القاهرة في اوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير وكان من نظامها ان تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة . وقد تكاثرت خزائن الكتب في المدارس الكبرى والصغرى فقومت كتب المدرسة النظامية ببغداد بالوف وكذلك كان شأن مدارس الشام ومصر .

قال القلقشندي في خزائن الكتب المشهورة : ويقال ان اعظم خزائن الكتب في الاسلام ثلاث خزائن احداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد فكان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة ولا يقوم عليه نفاسة ولم تزل على ذلك الى ان دهمت التتر بغداد فذهبت خزائن الكتب فيما ذهب . الثانية خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر وكانت من اعظم الخزائن واكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم ولم تزل على ذلك الى ان انقرضت دولتهم فاشترى القاضي الفاضل اكثر كتب هذه الخزانة ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب مغوخيا بالقاهرة فبقيت فيها الى ان استولت عليها الايدي فلم يبق منها الا القليل . الثالثة خزانة خلفاء بني امية بالاندلس وكانت من اجل خزائن الكتب ايضًا ولم تزل الى انقراض دولتهم باستيلاء مغوث الطوائف عليها . قال واما الآن فاي في القرن الثامن ! فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب اكتفاء بخزائن كتب المدارس .

ولم تكن الحكومات ورؤساؤها مولعة بجمع الكتب وجعلها وقفاً على المطالعة والمراجعة في قصورهم او مكاتب ينشئونها لهذا الغرض او في مدارسهم بل كان العلماء والوزراء وكثير من اهل الثراء مولعين باقتناء الكتب على تعذر الحصول عليها فقد كان نور الدين الشهيد مولعاً بالكتب جمع منها الامهات ووقف كثيراً منها على الاستفادة . وكذلك كان صلاح الدين فانه نقل بعض الكتب المهمة من مصر الى الشام لما صار عليها سلطاناً . وانشأ يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين خزانة كتب وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات النافعة . وكان يجمع فيها من الكتاب الواحد عشرات من النسخ ولقد غالى من كتب عنها ومنهم المقريزي وقالوا كان العزيز يتعهدها بنفسه حيناً بعد آخر . وانشأ نوح بن منصور صاحب بخارى من ملوك بني سامان مكتبة منقطعة القرين فيها الكتب على اختلاف ضروب العلم . وقد وصفها ابن سينا وكان أذن له بدخولها وقراءة ما فيها من كتب الطب فقال : دخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض في بيت منها كتب العربية والشعر وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد فطالعت فهرست كتب الاوائل وطلبت ما احتجت اليه منها ورأيت من الكتب مالم يقع اسمه الى كثير من الناس قط وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته ايضاً من بعد .

ولما كتب نوح بن منصور الى الصاحب بن عباد وزير بني بويه المتوفى سنة ٣٨٥ ورقة في السر يستدعيه ليفوض اليه وزارته وتدبير مملكته كان من جملة اعذاره اليه انه يحتاج لنقل كتبه خاصة الى اربعمائة جمل فما الظن بما يليق بها من التجمل . وكان سيف الدولة بن حمدان مولعاً بجمع الكتب ولوع نوح بن منصور فكانت في داره خزائن كبيرة جمع فيها الامهات المفيدة . وقيل ان وزير الواثق بالله كان ينفق ثلاثين الف دينار كل شهر على ترجمة الكتب ونسخها . وكان للفتح بن خاقان وزير المتوكل خزانة كتب جمعها علي بن يحيى لم ير اعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة قال ابوهنان ثلاثة لم ار قط ولا سمعت باكثر محبة للكتب والعلوم منهم الجاحظ والفتح بن خاقان واسمعيل بن اسحق القاضي وكان الفتح يحضر لمجالسة المتوكل فاذا اراد القيام لحاجة اخرج كتاباً من كمه او جيبه وقرأ فيه الى حين عودة المتوكل — قاله ابن الكتبي في الفوات .

وذكر المبرد مثل هذه الرواية فقال انه ما رأى احرص على العلم من ثلاثة الجاحظ والفتح بن خاقان واسمعيل بن اسحق القاضي . فاما الجاحظ فانه كان اذا وقع بيده كتاب

قرأه من اوله الى آخره اي كتاب كان واما الفتح بن خاقان فانه كان يحمل الكتاب في خفه فاذا قام بين يدي المتوكل للبول او للصلاة اخرج الكتاب لينظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريده ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه الى ان يأخذ مجلسه . واما اسمعيل بن اسحق فاني ما دخلت عليه قط الا وفي يده كتاب ينظر فيه او يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه . وبلغ من ولوع بعض الخاصة بالتوفر على خدمة العلم انهم كانوا يفتحون ابواب خزائنهم لكل مستفيد فقد جعل حنين بن اسحق النسطوري في بغداد داره مكتبة عامة تفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه . وكان لافرائيم بن الزفان الاسرائيلي من اطباء مصر همة عالية في تحصيل الكتب الطبية وغيرها وكان ابداً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه . قال ابن ابي أصيبعة وحدثني ابي ان رجلاً من العراق كان قد اتى الى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها وانه اجتمع مع افرائيم واتفق الحال فيما بينهما ان اباعه افرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد . وكان ذلك في ايام ولاية الافضل بن امير الجيوش فلما سمع بذلك اراد ان تبقى تلك الكتب في الديار المصرية ولا تنتقل الى موضع آخر فبعث الى افرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق ثمنه بين افرائيم والعراقي ونقلت الكتب الى خزانة الافضل وكتبت عليها القابه وخلف افرائيم من الكتب ما يزيد على عشرين الف مجلد . وكان للصاحب امين الدولة السامري همة عالية في جمع الكتب وتحصيلها قال ابن ابي اصيبعة : واقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم وكانت النساخ ابداً يكتبون له حتى انه اراد مرة نسخة من تاريخ دمشق للحافظ بن عساكر وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلداً فقال : هذا الكتاب الزمن يقصر ان يكتبه ناسخ واحد ففرقه على عشرة نساخ كل واحد منهم ثمان مجلدات فكتبوه في نحو سنتين وقد اجتمع عنده اكثر من عشرين الف مجلد وفي رواية انها بلغت مئة الف مجلد لا نظير لها في الجودة . ووقف موفق الدين ابي طاهر بساوة دار كتب . قال ابو بكر بن شاذان : وكان ممن اخذ عن الصوفي وكان يباهي كثيراً بالكتب وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الالوان كل صف من الكتب لون فصف احمر وصف اصفر وغير ذلك قال فكان الصوفي يقول هذه الكتب كلها سماع وكان ابو منصور الخوافي كثير الرواية واكثر رواياته كتب الادب وكان قد جمع كتباً من كل جنس . وكانت لبني موسى بن شاكر همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الاوائل واتعبوا انفسهم في شأنها وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم واحضروا النقلة من الاصقاع الشاسعة والاماكن البعيدة بالبذل السني

وكانت لموفق الدين بن المطران المتوفى سنة ٥٨٧ على ما في تاريخ الاطباء همة عالية في تحصيل الكتب حتى انه مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها . وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له ابداً ولهم منه الجامكية والجراية وكان من جملتهم جمال الدين المعروف بابن الجمانة وكان خطه منسوباً وكتب المطران ايضاً بخطه كتباً كثيرة وكان كثير المطالعة للكتب لا يفارق ذلك في اكثر اوقاته واكثر الكتب التي كانت عنده توجد وقد صححها واتقن تحريرها وعليها خطه بذلك وبلغ من كثرة اعتنائه بالكتب وغوايته فيها انه كتب لكثير من الكتب الصغار والمقالات المتفرقة في الطب وهي في الاكثر يوجد جماعة منها في مجلد واحد استنسخ كلاً منها بذاته في جزء صغير قطع نصف ثمن البغدادي بمسطرة واضحة وكتب بخطه ايضاً عدة منها واجتمع عنده من تلك الاجزاء الصغار مجلدات كثيرة جداً فكان ابداً لا يفارق في كمه مجلداً يطالعه على باب دار السلطان او اين توجه .

وكان للقاضي الفاضل من رجال صلاح الدين يوسف ولع بتحصيل الكتب ونعه بالكتابة قيل ان كتبه التي ملكها تكون مئة الف مجلد وليس هذا ببعيد على من كان له من صلاح الدين المكانة المعروفة فقد كان دخله ومغله على ما في كتب التاريخ نحو خمسين الف دينار سوى متاجر الهند والمغول وغيرها . وكان جمال الدين بن القفطي الصعيدي وزير حلب المعروف بالقاضي الاكرم المتوفى سنة ٦٤٦ جماعاً للكتب جمع منها ما لا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوي خمسين الف دينار ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة من غرامه بالكتب ولم يخلف ولداً فاوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب .

وكان ناصر الدين العسقلاني المتوفى سنة ٧٢٣ جماعاً للكتب خلف ثمان عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة ادبية وكانت زوجته تعرف ثمن كل كتاب وبقيت تبيع منها الى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وكان اذا لمس الكتاب وجسه قال: هذا الكتاب الفلاني وملكته في الوقت الفلاني وكان اذا اراد اي مجلد قام الى خزانته وتناوله كأنه الآن وضعه بيده قال ابن الكتبي: وكان يباشر الانشاء بمصر زماناً الى ان اضر لانه اصابه سهم في نوبة حمص الكبرى فعمي وبقي ملازماً بيته . وخلف ابو زكريا يحيى معين المعري البغدادي الحافظ المشهور من الكتب مائة قمطر وربع حمل [illegible] وكان الامير ابن فاتك من [illegible]

نزل من الركوب لا يفارقها وليس له دأب الا المطالعة والكتابة ويرى ان ذلك اهم ما عنده وكانت له زوجة كبيرة القدر ايضاً من ارباب الدولة فلما توفي نهضت في وجوارٍ منها الى خزائن كتبه وفي قلبها من الكتب وانه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه وفي اثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق اكثرها قال ابن ابي اصيبعة : فهذا سبب ان كتب المبشر ابن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال .

وجمع الوزير الفاضل ابو نصر المنازي كتباً كثيرة وقفها على جامع ميافارقين وجامع آمد قال ابن خلكان وهي الى الآن موجودة بخزائن الجامعين ومعروفة بكتب المنازي . وكان الاستاذ ابو الفتوح برجوان من خدام العزيز صاحب مصر ومديري دولته مولعاً بالكتب ولعه بالطرائف والاثاث والرياش والآلات وخلف منها مالا يحصى كثرة . واقتنى تاج الدين البغدادي اوحد عصره في فنون الآداب وعلو السماع من كتب خزائن مصر كل نفيس . وكان ابو موسى سليمان بن محمد الحامض النحوي المتوفى سنة ٣٠٥ صاحب الكتب الحسان في الادب اومى بكتبه لابي فاتك المقتدري بخلاً بها الى ان تصير الى احد من اهل العلم . وذكر صاحب نفح الطيب ان جده كان غنياً جداً حتى ان المقري هذا لم يدرك من ثروة جده الا اثر نعمة اتخذ فصوله عيشاً واصوله حرمة ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب . ومن جملة ذخائر قصر العاضد آخر ملوك العبيديين بمصر التي استولى عليها صلاح الدين يوسف خزانة كتب من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة الف مجلد . وكان ابو سعد السمعاني صاحب كتاب الانساب يحصل الكتب . وكان ولد القاضي الفاضل الاشرف بهاء الدين مثابراً على تحصيل الكتب مثل والده . وكان في دار ابي المظفر بن معروف من افاضل مصر واطبائها مجلس كبير مشحون بالكتب على رفوف فيه ولم يزل في معظم اوقاته في ذلك المجلس مشتغلاً في الكتب والقراءة والنسخ قال في طبقات الاطباء : ومن اعجب شيء منه انه كان قد ملك الوفاً كثيرة من الكتب في كل فن وان جميع كتبه لا يوجد شيء منها الا وقد كتب على ظهره ملحاً ونوادر مما يتعلق بالعلم الذي قد صنف ذلك الكتاب فيه وقد رأيت كتباً كثيرة من كتب الطب وغيرها من الكتب الحكمية كانت لابي المظفر وعليها اسمه وما منها شيء الا وعليه تعاليق مستحسنة وفوائد متفرقة مما يجانس ذلك الكتاب .

قال الذهبي وسنة اثنتين ومائة مات الضحاك بن مزاحم الخراساني صاحب التفسير وكان علامة وكان مؤدباً عنده ثلاثة آلاف صبي (كذا) ومكتبة كالجامع كان يدور عليهم قلت : ومن العجيب وجود كتب في القرن الاول تكون من الكثرة بحيث يتدعى مكتبة

وكان اسحق بن ابراهيم النديم الموسيقي المتوفى سنة ٢٣٥ كثير الكتب حتى قال ابوالعباس ثعلب رأيت لاسحق الموصلي الف جزء من لغات العرب وكلها سماعه وما رأيت اللغة في منزل احد قط اكثر منها في منزل اسحق ثم منزل ابن الاعرابي . وكانت كتب الواقدي تملأ ستمائة صندوق ويقتضي حملها مئة وعشرين جملاً . وكان صاحب القاموس الفيروزابادي لا يسافر الا ومعه احمال من الكتب . وكتب ابن قيم الجوزية بخطه مالا يوصف وكان محباً للعلم ومطالعته وكتابته واقتناء كتبه واقتنى من الكتب ما لا يحصل لغيره . وكان عند محمد ابن سيد الناس كتب كبار وامهات جيدة وهو من الحفاظ والمحدثين ورأى ابن النديم صاحب الفهرست مكتبة ابن ابي بعرة من اهل مدينة الحديثة في الموصل وقال : انه لم ير لاحد مثلها . ومدح ياقوت الحموي مدينة مرو فقال : ولولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد واخرابها لما فارقتها الى الممات لما في اهلها من الرقة ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الاصول المتقنة بها فاني فارقتها وفيها عشرة خزائن للوقف لم ار في الدنيا مثلها كثرة وجودة منها خزانتان في الجامع احداهما يقال لها العزيزية وفيها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني اوعتيق بن ابي بكر وكان فقاعيا للسلطان سنجر وكان في اول امره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ثم صار شرابيا له وكان ذا مكانة منه وكان فيها اثنا عشر الف مجلد او ما يقاربها والاخرى يقال لها الكمالية لا ادري الى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤ وكان حنفي المذهب وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته وخزانتان للسمعانيين وخزانة اخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها والخزانة الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد واكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد واغناني عن الاهل والولد واكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن .

وفي خطط مصر ومزاراتها للسخاوي ان المدرسة المحمودية بخط المواز ينسبون انشأها محمود الاستادار في سنة ٧٩٧ ورتب بها درساً للسادة الحنفية وللحديث النبوي وعمل بها خزانة كتب لم تحو خزانة مثل ما فيها من الكتب وهي كلها كتب قاضي القضاة ابراهيم بن جماعة . وكان الامام زين الدين ابوحفص عمر بن مسلم القرشي من علماء دمشق المتوفى سنة ٧٩٣ مولعاً بالكتب وملك من نفائسها شيئاً كثيراً حتى انه لما اعتقل هو وابنه بقلعة دمشق في دولة الظاهر برقوق رهن كثيراً من كتبه على المبلغ الذي طلب منهما . واولع الامام

المقري الواعظ المفسر الخطيب الصوفي شيخ العراق عزالدين ابوالعباس احمد الفاروقي الواسطي بالكتب كثيراً قال ابن كثير : انه خلف التي مجلد ومائتي مجلد وتوفي سنة ٦٩٤ واحب بدر الدين بن غانم احد كتاب الانشاء بدمشق الكتب وعني بجمعها وخلف التي مجلدة . ووقف فخر الدين المارديني الفيلسوف سنة ٥٩٤ جميع كتبه في مدينة ماردين في المشهد الذي وقفه حسام الدين بن ارتق الفيلسوف والكتب التي وقفها فخر الدين في من اجود الكتب وهي نسخه التي كان قد قرأ اكثرها على مشايخه وحررها وقد بالغ في تصحيحها واتقانها . وحصل عمران الاسرائيلي الطبيب المتوفى سنة ٦٣٧ من الكتب الطبية وغيرها مالا يكاد يوجد عند غيره . وأحصيت الكتب التي وجدت في خزانة نور الدين علي بن جابر فكانت نحو ستة آلاف مجلد . وبامثال هؤلاء راجت صناعة الوراقة والنسخ في البلاد الاسلامية رواج المطابع اليوم او اكثر حتى كان الوجيه بن صورة المتوفى سنة ٦٠٧ سماراً في الكتب بصراً « وله في ذلك حظ كبير وكان يجلس في دهليز داره لذلك ويجتمع عنده في يوم الاحد والاربعاء اعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده الى انقضاء وقت السوق فلما مات السلفي سار الى الاسكندرية ليبيع كتبه »

وبعد فقد أولع اهل الاندلس بالتطريس على آثار المملكة الاسلامية الشرقية في علومهم وصناعتهم وزراعتهم حتى كان لبعض العظماء منهم في كل عاصمة من عواصم العلم في الشرق نساخ متوفرون على نقل الكتب التي يؤلفها المشارقة ولا يصح ان تخلو منها مكاتب المغاربة فكأن الاندلسيين كسائر الغربيين الاوروبيين من الافرنج يولعون من الفطرة بالاخذ عن الشرق كليات الحضارة وجزئياتها . وترى اليوم مثالاً من ذلك يشبه حال الاندلسيين مع سكان المشرق قديماً فان اهل الغرب ما برحوا يتتبعون آثار السلف في الشرق على ارتقاء العلوم عندهم وايغالهم في مرامي المدنية .

ذكروا انه كان في الاندلس وحدها سبعون مكتبة عامة فيها مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة . قال ابن الخطيب كانت في سبتة خزانة كتب العلوم وكذلك في مكناسة الزيتون خزائن كتب . وكان الحكم بن الناصر المتوفى سنة ٣٦٦ جماعاً للكتب يبذل الاموال في استجلابها من الاقطار قال الذهبي : ولعل كتبه كانت تساوي اربعمائة الف دينار وقال لسان الدين بن الخطيب انه كان محباً في العلم والعلماء مثيراً للرجال من كل بلد جمع العلماء من كل قطر ولم يكن في بني امية اعظم همة ولا اجل منزلة في العلوم وغوامض الفنون منه قال ابن حزم : اخبرني تليد الخصي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار مروان ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة

ليس فيها الا ذكر اء الدواوين لا غير . وقال ابن خلدون ان الحكم كان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس مالم يعهدوه قال جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فاوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من من قبله ولا من بعده الا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى ان بيع اكثرها في حصار البربر وامر باخراجها وبيعها الحاجب واضح ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة . ونقل المقري ان الحكم جمع من الكتب مالا يحدولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل انها كانت اربعمائة الف مجلد وانهم لما نقلوها اقاموا ستة اشهر في نقلها قال : وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته وقلما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة او نظر في اي فن كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن . وكان ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك المصامدة شديد الولع بالعلم والادب طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من اجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب ثم تخطى ذلك الى ما هو اشرف منه من انواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي قال صاحب المعجب : اخبرني ابو محمد عبد الملك الشذوني احد المحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال : كنت سيفي ايام شبيبتي استعير كتب هذه الصناعة يعني صنعة الاحكام من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمرافي كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في الفتنة بالاندلس فكان يعيرني اياه في غرائر احمل غرارة واجيء بغرارة من كثرتها عنده فاخبرني في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فاسرّ اليّ ان خبرها أنهي الى امير المؤمنين فارسل الى داري وانا في الديوان لا علم عندي بذلك وكان الذي ارسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وامره ان لا يروّع احداً من اهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه اشد الوعيد ان نقص اهل البيت ابرة فما فوقها فأخبرت بذلك وانا في الديوان فظننته يريد استصفاء اموالي فركبت وما معي عقلي حتى اتيت منزلي فاذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه فلما رآني وتبين ذعري قال لي لا بأس عليك واخبرني ان امير المؤمنين يسلم عليّ وانه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال لي : سل اهل بيتك هل راعهم احد او نقصهم شيئاً . جاء ابو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرات فاخلينا له الطريق

ودخل هو بنفسه الى خزانة الكتب فامر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع وولوه بعد اخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه . ولم يزل يجمع الكتب من اقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة اهل علم النظر الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب . ولما تغلب السلطان يعقوب بن عبدالحق صاحب المغرب الاقصى على ملك تشتالة في اواخر المئة السابعة سأله ان يبعث اليه بكتب العلم التي بايدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام فبعث اليه منها ثلاثة عشر حملاً فامر السلطان بحملها الى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم . وكان احمد بن الرومية احد اعلام المحدثين المتوفى سنة ٦٣٧ وهو النباتي الذي وقف على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدم في الملة الاسلامية حتى صار فرداً لا يجاريه احد باجماع من اهل هذا الشأن ـ كثير الكتب جماعاً لها كما قال في الاحاطة وذلك في كل فن من فنون العلم وربما وهب منها لمتحسه الاصل النفيس الذي يعز وجوده احتساباً واعانة على التعليم قال: وانتشرت عنه تصانيف ابي محمد بن حزم واستحسنها واظهرها واعتنى بها وانفق عليها اموالاً جمة حتى استوعبها جملة فلم يشذ له منها الا ما لا خطر له مقتدراً على ذلك بجدته ويساره . قال : ولما وصل الى المشرق لقي مئين من شيوخها فنقل برواية واسعة وجلب كتباً غريبة .

وذكر صاحب الاحاطة ان ذا الوزارتين ابي عبدالله اللخمي المتوفى سنة ٧٠٨ اكرم العلم والعلماء ولم تشغله السياسة عن النظر ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع وافرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها واثرت انديته من ذخائرها . قال ابن خاتمة: كان للشيخ ابي بكر الحكيم الرندي عناية بالرواية وولوع بالادب وصيابة باقتناء الكتب جمع من امهاتها العتيقة واصولها الرائقة الانيقة ما لم يجمعه في تلك الاعصر سواه ولا ظفرت به يداه وكان اقتناء الكتب عند الاندلسيين من شارات الوجاهة وامارات الظرف وقد يجمع الغني ما شاء من كتب وقماطر وهو لا يعلم الفائدة المترتبة عليها وكان اهل قرطبة ارغب في مقتناها من اكثر البلاد الاندلسية . جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بن الفقيه ابي الوليد بن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما ادري ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع آلاته حملت الى قرطبة وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع آلاته وكتبه حملت الى اشبيلية حتى تباع فيها قال ابوالفضل التيفاشي : وقرطبة اكثر بلاد الله كتباً . وروى المقري أن ذلك صار عندهم من آلات التعين والرياسة حتى ان الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة

يحتفل في ان تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس الا لان يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . قلت: وهذا الغلو يشبه لعهدنا غلو جماع الطوابع والعاديات والصور وممن كان جماعاً للكتب والدواوين العلمية بالاندلس احمد بن عباس الانصاري فكان معتنياً بها مغالياً بها تقاعاً بها من حصه لا يد تخرج منها شيئاً لفرط بخله بها الا لسبيلها حتى لقد اثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها وجمع منها ما لم يكن عند ملك — قاله لسان الدين . وقال في ترجمة احمد بن الصفير الخزرجي من علماء الاندلس المتوفى سنة ٥٥٩ انه كان مولعاً بالاسفار كتب من دواوين العلم ودفاتره مالا يخفى كثرة بشدة ضبط وحسن خط وعد في جملة محنته ان ضاعت له في ذلك وفي غيره كتب كثيرة بخطه مما يجل عن القيمة . قال وكان احمد ابن ابراهيم من اهل الاندلس امتحن بان نشأ بينه وبين المتغلب بمالقة من الرؤساء وحشة فكبس منزله واستولت الايدي على ذخائر كتبه وفوائد تقييده عن شيوخه ما طالت له الحسرة وجلت له الرزية ولما سريت عنه النكبة كانت له الطائلة على عدوه والطائلة الحسنى بعد التياث امره والظفر بكثير من منتهب كتبه وتوفي سنة ٧٠٨

وكان ابو جعفر احمد بن الجواز من اهل القيروان عالماً وجد له خمسة وعشرون قنطاراً من كتب طبية وغيرها . وكان القاسم بن محمد الاشبيلي الامام الحافظ المحدث المؤرخ باذلاً لكتبه واجزائه ووقفها . وكان ابن نغرلة اليهودي كاتب باديس الصنهاجي احد رؤساء الاندلس جماعاً للكتب وكان ضليعاً في العلم كتب عنه وعن صاحبه بالعربي فيما احتاج اليه من فصول التحميد لله تعالى والصلاة على رسوله والتزكية لدين الاسلام .

وكان محمد بن حزم جماعاً للكتب . وكان ابو بكر محمد بن يحيى والد ابي زكريا الراوية من حفاظ النحو واللغة والشعر مولعاً بالكتب جمع منها شيئاً عظيماً .

وكان عبدالله محمد بن عبدالله السلمي المرسي احد ائمة العلم كتب في البلاد التي ينتقل اليها بحيث لا يستصحب كتباً في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر اليه . وكان الوزير الكاتب ابو جعفر احمد بن عباس وزير زهير الصقلي ملك المرية من بلاد الاندلس جماعاً للدفاتر حتى بلغت اربعمائة الف مجلد واما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها . وكان المظفر بن الافطس صاحب بطليوس كثير الادب جم المعرفة محباً لاهل العلم جماعة للكتب ذا خزانة عظيمة لم يكن في ملوك الاندلس من يفوقه في ادب ومعرفة — قاله ابن حيان . وقال ابن بسام : كان المظفر اديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر ايضا اسمه بالكتاب

المظفري في خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم من مغازي وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص بعلم الادب .

هذا ما ظفرنا فيه من اسماء غلاة الكتب في عصور الارتقاء في هذه الملة فليته يعود للشرق بدض هذه الهمة في اقتناء المفيد .

نظام الشرب

للدكتور فيلكس رينول نشرت في « المجلة » الفرنسوية

لماذا نشرب

الماء ضروري للحياة . وقد ثبت ان بعض المخلوقات المنحطة كذوات الشديين تصبر على قلة الماء حتى اذا بُلت به تعود الى الحياة في الحال . وفي الواقع انها تموت بعد ان تترك بيوضاً ذات قشرة ثخينة تبقى في الجفاف وتنقف في الرطوبة . وترى الحيوانات المائية في البلاد الحارة عند ما يقل الماء تتخذ لنفسها وقاية من مادة ملتحمة ثم تخلد الى السبات . ففي بطائح السنيغامبيا التي تجف ثلاثة ارباع السنة سمك غريب « بروتوبتروس انيكتانس » متى اعوزه الماء ينغمس في قالب من الطين الملتحم الاجزاء وينام نوماً طويلاً . ولا يعيش الانسان في القفار وبلاد السهوب المعشبة الا بفضل بعض الينابيع القليلة . والحيوانات على اختلاف اجناسها تردها وهي تريد بلّ صداها .

تحمل الحيوان على الشرب ضرورة دفع العطش والمرء وحده هو الذي يتوقع من الشرب لذائذ اخرى . فهو يتطلب اشربة تبعث شهوته للطعام فيختار لذلك في العادة من الادوية المفتحة ما يتألف من الالكحول ممزوجاً بنباتات مرة كنبات كف الدئب وغيره مما يوصي به الاطباء . يتطلب الاشربة التي تسهل الهضم . والمرق من اكثرها تأثيراً وتغذيته متوسطة ولكن ينشأ عنه ترشح غزير في الاخلاط فلكثرة العصارة المعدية ولذلك جرت العادة ان يتناول في بدء الطعام . ويتطلب المرء ايضاً اشربة تسره وتطيب بها نفسه كالقهوة والشاي واللوز الحلو والالكحول تحسن صوت القلب وتدفع التعب وتهيج الرأس .

وفي بعض الامثال ان من يقتصرون على الماء تعروهم الكآبة . فاذا كان العامل يتعاطى الالكحول بعد معالجة عمله الشاق فذلك لانه يريد ان يرى نضرة الحياة . والبحث